□ عُلُوُّ الهمَّةِ في التبَتُّلِ □

قال الله تعالى : ﴿ **واذكرِ اسمَ ربِّك وتَبَتَّلْ إليه تبتيلًا** ﴾ [المزمل : ٨].

و « التبتل » : الانقطاع . وهو تفعُّل من البَتْل ، وهو القطْع . وسميت مريمُ « البتولَ » ؛ لانقطاعها عن الأزواج ، وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها ، ففاقت نساء الزمان شرفًا وفضلًا ، وقُطعت منهنَّ . ومصدر « بتَّل » : « تبتُّلا » ، كالتعلُّم والتفهُّم ، ولكن جاء على التفعيل - مصدر تفعَّل - لسرٍّ لطيف ؛ فإن في هذا الفعل إيذانًا بالتدريج والتكلُّف والتعمُّل والتكثُّر والمبالغة ، فأتى بالفعْل الدالِّ على أحدهما ، وبالمصدر الدالِّ على الآخر ، فكأنه قيل : بَتِّلْ نفسَك إلى الله تبتيلًا ، وتبتَّلْ إليه تبتُّلا . ففُهِمَ المعنيان من الفعْل ومصدره ، وهذا كثير في القرآن . وهو من أحسن الاختصار والإيجاز .

قال صاحب « المنازل » : « التبتُّل : الانقطاع إلى الله بالكليَّة . وقوله عز وجل : ﴿ **له دعوة الحقِّ** ﴾ [الرعد : ١٤] أي : التجريد المحْض » .

ومراده بالتجريد المحض : التبتُّل عن ملاحظة الأعواض ؛ بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذي لا يخدم إلّا لأجْل الأجْرة ؛ فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر ، بخلاف العبد ؛ فإنه يخدم بمقتضى عبوديته لا للأجرة ، فهو لا ينصرف عن باب سيِّده إلّا إذا كان آبِقًا ، والآبِق قد خرج من شرَف العبودية ، ولم يحصل له إطلاق الحرية ، فصار بذلك مركوسًا عند سيده وعند عبيده . وغاية شرف النفس : دخولُها تحت رِقِّ العبودية طوْعًا واختيارًا ومحبَّة ، لا كرهًا وقهرًا . كما قيل :

شرفُ النفوسِ دخولُها في رِقِّهِمْ   والعبدُ يحوي الفخرَ بالتمليكِ

والذي حَسَّن استشهاده بقوله : ﴿ **له دعوة الحق** ﴾ في هذا الموضع :

إرادةُ هذا المعنى ، وأنه تعالى صاحبُ دعوة الحقِّ لذاته وصفاته ، وإن لم يُوجب لداعيه بها ثوابًا ، فإنه يستحقُّها لذاته ؛ فهو أهل أن يُعبد وحدَه ، ويُدعىٰ وحدَه ، ويقصد ويُشكر ويُحْمد ، ويُحبّ ويُرجىٰ ويُخاف ، ويُتوكَّل عليه ويستعان به ، ويستجار به ويلجأ إليه ، ويُصمد إليه ، فتكون الدعوة الإلهية الحقُّ له وحده .

ومن قامَ بقلبِهِ هذا - معرفةً وذوْقًا وحالًا - صحَّ له مقـام التبتُّل ، والتجريد المحْضِ . وقد فسَّر السلفُ « دعوة الحق » بالتوحيد والإخلاص فيه والصِّدْق . ومرادهم هذا المعنى .

فقال علي رضي الله عنه : دعوةُ الحق : التوحيد . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « شهادة أن لا إله إلا الله » . وقيل : الدعاء بالإخلاص . والدعاء الخالص لا يكون إلا لله . ودعوة الحقّ دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها .

درَجـاتُ التبتُّـل :

قال شيخ الإسلام الهروي : « وهو على ثلاثِ درجات :

الدرجةُ الأُولىٰ : تجريدُ الانقطاعِ عن الحظوظ واللُّحُوظِ إلى العالَم ، خوفًا أو رجاءً ، أو مبالاةً بحالٍ » :

قال شيخ الإسلام ابن القيِّم شارحًا : « قلتُ : « التبتُّل » يجمع أمرين : اتصالًا وانفصالًا ، لا يصح إلّا بهما :

فالانفصال : انقطاع قلبه عن حظوظ النفْس المزاحمة لمراد الربِّ منه ، وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله ، خوفًا منه أو رغبة فيه ، أو مبالاةً به أو فكرًا فيه بحيث يشغل قلبه عن الله .

والاتصال : لا يصحُّ إلّا بعد هذا الانفصال . وهو اتصالُ القلب بالله ،

وإقبالهُ عليه ، وإقامة وجهه له ، حُبًّا وخوفًا ورجاءً وإنابة وتوكُّلًا .

ثم ذكَر الشيخ ما يُعين على هذا التجريد ، وبأيِّ شيء يحصل . فقال : « بحسْم الرجاء بالرضا ، وقطْع الخوف بالتسليم ، ورفْض المبالاة بشهود الحقيقة » .

يقول : إن الذي يحسم مادَّة رجاء المخلوقين من قلبك : هو الرضا بحكم الله عز وجل وقَسْمه لك . فمن رضي بحكم الله وقَسْمه ؛ لم يبقَ لرجاء الخلْقِ في قلبه موضع .

والذي يحسم مادَّة الخوف: هو التسليم لله؛ فإن من سلَّم لله واستسلم له ، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له – لم يبقَ لخوْف المخلوقين في قلبه موضع أيضًا ؛ فإن نفْسَه التي يخاف عليها قد سلَّمها إلى وليِّها ومولاها ، وعلِم أنه لا يصيبها إلّا ما كُتب لها ، وأن ما كُتب لها لا بدّ أن يصيبها . فلا معنى للخوف من غير الله بوجه .

وفي التسليم أيضًا فائدة لطيفة : وهي أنه إذا سلَّمها اللهَ فقد أودعها عنده ، وأحرزها في حِرْزه ، وجعلها تحت كنَفِه . حيث لا تنالها يَدُ عَدوٍّ عادٍ ولا بَغْي بَاغٍ عاتٍ .

والذي يحسم مادَّة المبالاة بالناس : شهودُ الحقيقة : وهو رؤية الأشياء كلها من الله وبالله ، وفي قبضته وتحت قهْره وسلطانه . لا يتحرَّك منها شيء إلّا بحوْله وقوَّته ، ولا ينفع ولا يضرُّ إلَّا بإذنه ومشيئته . فما وجه المبالاة بالخلْق بعد هذا الشهود ؟! »[1].

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٠ – ٣١ .

« الدرجة الثانية : تجريدُ الانقطاعِ عن التعريج على النفْس ؛ بمجانبة الهوى ، وتنسُّم رَوْح الأُنْسِ ، وشَيم برْقِ الكشْف » :

قال ابن القيم : « الفرق بين هذه الدرجة والتي قبلها : أنَّ الأولى انقطاعٌ عن الخلْق ، وهذه انقطاع عن النفس . وجعَلَه بثلاثة أشياء :

أولها : مجانبة الهوىٰ ومخالفته ، ونهي نفْسِهِ عنه ؛ لأنَّ اتباعه يصدُّ عن التبتُّل .

وثانيها :- وهو بعد مخالفة الهوى - تنسُّم رَوْح الأُنْس بالله ، والرَّوح للرُّوح كالرُّوح للبدن ، فهو رُوحها وراحتها . وإنما حصل له هذا الرَّوح لمَّا أعرض عن هواه ، فحينئذ تنسَّم روح الأنس بالله ، ووجد رائحته ؛ إذ النفس لا بدَّ لها من التعلُّق ، فلما انقطع تعلُّقها من هواها وجدَتْ رَوح الأُنس بالله ، وهَبَّت عليها نسماته ، فريَّحتْها وأحْيَتْها .

وثالثها : شَيْم برق الكَشف : وهو مطالعته واستشرافه والنظر إليه ، ليعلم به مواقع الغيْث ومساقط الرَّحمة .

وليس مراده بالكشْف هاهنا: الكشْف الجزئي السفلي، المشترك بين البَرِّ والفاجر ، والمؤمن والكافر ، كالكشْف عن مخبآت الناس ومستورهم . وإنما هو الكشْف عن ثلاثة أشياء ، هنَّ منتهى كشفُ الصادقين أرباب البصائر :

أحدها : الكشف عن منازل السيْر .

والثاني : الكشف عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ومفسداتها .

والثالث : الكشْف عن معاني الأسماء والصفات ، وحقائق التوحيد والمعرفة .

وهذه الأبواب الثلاثة : هي مجامع علوم القوْم ، وعليها يحومون ، وحولها يدندنون ، وإليها يشمِّرون ، فمنهم مَن جُلُّ كلامه ومعظمه : في السيْر وصفة

المنازل . ومنهم من جُلُّ كلامه : في الآفات والقواطع . ومنهم من جُلُّ كلامه : في التوحيد والمعرفة ، وحقائق الأسماء والصفات .

والصادق الذكي يأخذ من كلٍّ منهم ما عنده من الحقِّ ، فيستعين به على مطلبه ، ولا يردُّ ما يجده عنده من الحق لتقصيره في الحق الآخر ، ويهدره به . فالكمال المطلق لله رب العالمين ، وما من العباد إلّا له مقام معلوم »[1] .

« الدرجة الثالثة : تجريد الانقطاع إلى السبْق ؛ بتصحيح الاستقامة ، والاستغراق في قصْدِ الوصول ، والنظر إلى أوائل الجمع » :

قال ابن القيم : « لما جعل الدرجة الأولى انقطاعًا عن الخلْق ، والثانية انقطاعًا عن النفس ؛ جعل الثالثة طلبًا للسبْق ، وجعله بتصحيح الاستقامة : وهي الإعراض عما سوى الحقّ ولزوم الإقبال عليه ، والاشتغال بمحابه . ثم بالاستغراق في قصد الوصول : وهو أن يشغله طلب الوصول عن كلِّ شيء ، بحيث يستغرق همومه وعزائمه وإراداته وأوقاته. وإنما يكون ذلك بعد بُدُوّ برق الكشْف المذكور له .

وأما النظر إلى أوائل الجمع : فالجمع هو قيام الخلْق كلهم بالحقِّ وحده ، وقيامه عليهم بالربوبية والتدبير .

والنظر إلى أوائل ذلك : هو الالتفات إلى مقدماته وبداياته ، وهي العقبة التي يَنْحدر منها على وادي الفناء .

وقد قيل : إنها وقْفة تعترض القاطِع لأودية التفرقة قبل وصوله إلى الجمع . ومنها يُشرف عليه .

وهذه الوقفة تعترض كل طالب مُجِدٍّ في طلبه ، فمنها يرجع على عقبه ،

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣١ - ٣٢ .

أو يصل إلى مطلبه . كما قيل :

لا بدَّ للعاشـق من وقفـةٍ ما بين سلوانٍ وبينَ غرامِ
وعندهَا ينـقُل أقـدامَـهُ إمَّا إلى خلْفٍ وإمَّا أمامِ

والذي يظهر لي من كلامه: أن أوائل الجمع: مباديه ولوائحه وبوارقه»[1].

قال ابن القيم بعد إيراده للثلاث درجات للهروي :

« الدرجة الرابعة: الانقطاع عن مراده من ربِّه، والفناءُ عنه إلى مراد ربِّه منه ، والفناءُ به » :

« وبعد هذا درجة رابعة ، وهي الانقطاع عن مراده من ربه ، والفناء عنه إلى مراد ربِّه منه ، والفناء به . فلا يريد منه ، بل يريد ما يريده ، منقطعًا به عن كل إرادة ، فينظر في أوائل الجمع في مراده الديني الأمري الذي يحبُّه ويرضاه »[2] .

كلامٌ نفيسٌ لابن القيم في أنَّ كمال العبودية بإعطاء الجمْعِ والفرْقِ حقَّهما في « إيَّاك نعبُد » و « إياك نستعين » :

قال ابن القيم : « وأكثر أرباب السلوك عندهم « إياك نعبد » : فرق ، و « إياك نستعين » : جمع ، ثم منهم مَن يرى أن ترك الجمْع : زندقة وكفر ، فهو يعرض عن الجمع إلى الفرق . ومنهم من يرى : أن مقام « التفرقة » ناقص مرغوب عنه، ويرى سوء حال أهله وتشتُّتهم، فيرغب عنه عاملًا على الجمع، يتوجه معه حيث توجَّهت ركائبُه . والمستقيمون منهم يقولون : لا بدَّ للعبد السالك من جمع وفرق ، وقيام العبودية بهما . فمن لا تفرقة له لا عبودية له ، ومن لا جَمْع له لا معرفة له ولا حال .

---

(١) مدارج السالكين ٣٢/٢ - ٣٣ .

(٢) مدارج السالكين ٣٣/٢ .

فـ « إياك نعبد » : فرق ، و « إياك نستعين » : جمع .

والحقُّ أن كلًّا من مشهديْ « إياك نعبد » و « إياك نستعين » : متضمِّن للفرق والجمع ، وكمال العبودية بالقيام بهما في كل مشهد .

ففرْقُ « إياك نعبد » : تنوُّع ما يُعبد به ، وكثرة تعلُّقاته وضروبه .

وجمْعُه : توحيد المعبود بذلك كلِّه ، وإرادة وجهه وحده ، والفناء عن كلّ حظٍّ ومراد يُزاحم حقَّه ومراده .

فتضمَّن هذا المشهد فرقًا في جمْع ، وكثرةً في وحدة ، فصاحِبه يتنقّل في منازل العبودية من عبادة إلى عبادة ، ومعبوده واحد ؛ لا إله إلا هو .

وأما فرْقُ « إياك نستعين » : فشهود ما يستعين به عليه ، ومرتبته ومنزلته ، ومحلّه من النفْع والضرّ ، وبدايته وعاقبته ، واتصاله بل وانفصاله وما يترتب عليه من هذا الاتصال والانفصال .

ويشهد مع ذلك ، فقر المستعين وحاجته ونقْصه ، وضرورته إلى كمالاته التي يستعين ربَّه في تحصيلها ، وآفاته التي يستعين ربَّه في دفعها ، ويشهد حقيقة الاستعانة وكفاية المستعان به ، وهذا كلُّه فرْقٌ يُثمر عبودية هذا المشهد .

وأمَّا جمْعُه : فشهود تفرُّده سبحانه بالأفعال ، وصدور الكائنات بأسْرِها عن مشيئته ، وتصريفها بإرادته وحكمته .

فغيبته بهذا المشهد عما قبله من الفرق ؛ نقص في العبودية ، كما أن تفرُّقه في الذي قبله دون ملاحظته : نقصٌ أيضًا . والكمال : إعطاءُ الفرق والجمْع حقَّهما في هذا المشهد والمشهد الأول .

فتبيّن تضمُّن « إياك نعبد » و « إياك نستعين » للجمْع والفرق . والله المستعان »[1].

---

(١) مدارج السالكين ٣٣/٢ - ٣٤ .

أخي ، مَن صحَّ فراره إلى الله ، صحَّ قراره مع الله ، ومَن انقطع إلى الله أغناه عمَّن سواه .

هذه مريم البتول انقطعتْ إلى الله ؛ فآثرها الله على نساء العالمين ، وأجرى لها من الكرامة ما أجرى ؛ ﴿ **كلَّما دخل عليها زكريا المحرابَ وجد عندها رزقا** ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

وهذه آسية انقطعتْ إلى الله وآثرته على المُلْك والجاه ، فآثرها الله بالقرْب منه في جنَّته ودار علاه .

أخي ، شتَّانَ بين عبدٍ منقطع إلى ربِّه يخدمه ، وآخرَ منقطع لخدمة الخلْق يعبدهم ، وكم بين عبدٍ منقطِعٍ عن الناس ، وبين عبد موصول به الوسواس !!

شتان بين عبد منقطِع بالشوْق إلى المولى ، وبين عبد منقطع بالهوىٰ معانِق للدنيا، هذه مقامات المقرَّبين بالحسنىٰ، وأضدادها مقامات المبعدين بالسوء .

* * *